الإصلاح القرآني للأسرة والمجتمع
(دراسة موضوعية)

أ. د. سلام عبود حسن

أ. د. إيناس عبد الرزاق علي
الجامعة العراقية كلية التربية للبنات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وجعل منه الذكر والأنثى، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على عبده ورسوله محمد ﷺ خير الخلق وحبيب الحق، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد؛ تعد الأسرة المؤسسة الاجتماعية الأولى التي ينشأ فيها الفرد، فهي الخلية الأولى في اكتساب الأنسان من الخبرات والسلوكيات والمعارف، فكل ما يتعرض له من مؤثرات تربوية ايجابية أو سلبية، تسهم في تكوين ملامح شخصيته الذاتية والاجتماعية، ويبقى الانسان متأثرا بأسرته طيلة حياته.

إن رسالة الاسلام رسالة عالمية صالحة للتطبيق لكل زمان ومكان، لا تطالها عوارق النقص أو الخلل، فهي شريعة خالدة أنزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم، وختم بها الشرائع والرسالات.

وعلى هذا الأساس كان للمنهجية القرآنية في الإصلاح قدم السبق في مجال تنظيم الأسرة، ووضع الحلول لمشكلاتها .

فدور الأسرة وما تقوم به من تنظيم العلاقات بين الزوجين، وإصلاح الأصول والفروع بإشاعة روح المودَّةِ والتراحم والاحترام بين أفرادها ، وبما تقدمه للحياة من جيل واع للمسؤولية وأهميتها ؛ لهذه الاعتبارات وغيرها نجد أن القرآن الكريم قد أولاها عناية عظمى، وخير دليل على ذلك النصيب الأوفر الذي حظيت به أحكام الأسرة وتعاليمها من آي الذكر الحكيم .

وإن من فضل الله عز وجل عليَّ أن وجّهَ همتي وشرح صَدري لأنال شرف الكتابة في موضوع يخص كتاب الله تعالى، ويعالج المشكلة الأساسية والجوهرية لما تعانيه أمتنا اليوم والمتمثلة بالأسرة وسبل النهوض بها والحفاظ عليها .

المطلب الأول : التعريف بالإصلاح لغة واصطلاحاً

أولا: تعريف الإصلاح لغة واصطلاحاً :

(الصلاح ضد الفساد تقوله صلَح الشيء يصلح صلوحاً.. قال الفراء: وحكى أصحابنا صلُح أيضاً بالضم، وهذا الشيء يصلح لك أي هو من بابك، والصلاح بكسر الصاد المصالحة والاسم الصُّلْح يذكر ويؤنث.. وقد اصطلحا وتصالحا واصّالحا أيضاً مشددة الصاد والإصلاح نقيض الإفساد والمصلحة واحدة المصالح والاستصلاح نقيض الاستفساد..)[1].

وهذا المعنى يتردد في معجمات اللغة كلّها فـ(الصلاح نقيض الطلاح ورجل صالح في نفسه ومصلح في أعماله وأموره، والصلح

(١) الصحاح، مادة (صلح): ١/ ٣٨٣-٣٨٤.

تصالحُ القوم بينهم وأصلحت إلى الدابة أحسنت إليها..)[١].

والمعنى نفسه في المحكم إذ يقول (الصلاح نقيض الطلاح ورجل صالح في نفسه ومصلح في أعماله وأموره والصلح تصالح القوم بينهم وأصلحت إلى الدابة أحسنت إليها..)[٢].

وتصالح القوم بينهم والصلاح ضد الطلاح.. ورجل صلْح بمعنى صالح وما بعد ذلك صلوح أي صلاح[٣].

وفي تهذيب اللغة أن (الصلاح نقيض الفساد، والإصلاح نقيض الإفساد ورجل صالح: مصلح. والصالح في نفسه والمصلح في أعماله وأموره ويقال صلح فلان صلوحاً وصلاحاً..)[٤].

(والصلاح ضد الفساد وقد يوصف به آحاد الأمة ولا يوصف به الأنبياء والرسل عليهم السلام)[٥].

ثانيا: الصلاح اصطلاحاً :

هو سلوك طريق الهدى وقيل : هو استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل ؛ والصالح : المستقيم الحال في نفسه ، وقال بعضهم : القائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد . [٦]

أما اصطلاحاً: ففيه ارتباط وثيق بمعناه اللغوي ؛ قال الزمخشري [٧]: «الصلاح : وهو الحصول على الحال المستقيمة النافعة» [٨] . والصلح يختص بإزالة النفار بين الناس ، يقال منه اصطلحوا وتصالحوا ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ ﴾ [٩] وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن تُصۡلِحُواْ ﴾ [١٠] وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ﴾ [١١] وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾ [١٢] وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده ، قال تعالى : ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [١٣] ، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴾ [١٤] وقوبل في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة قال **تعالى** : ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ﴾ [١٥] ، **وفي آية أخرى** قال تعالى : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا

(١) العين، مادة (صلح): ٣/ ١١٧.
(٢) المحكم والمحيط الأعظم، مادة (صلح): ١/ ١٠٩-١١٠.
(٣) المحيط في اللغة، مادة (صلح): ٣/ ١٨١.
(٤) تهذيب اللغة: مج٢، ٤/ ٢٤٣.
(٥) تاج العروس، مادة (صلح): ٦/ ١١٧.
(٦) الكليات ، للكفوي : ١ / ٥٦١ .
(٧) الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري ، جار الله ، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب ، ولد في زمخشر من قرى خوارزم ، وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان ، ثم عاد إلى الجرجانيه من قرى خوارزم، فتوفي بها سنة (٥٣٨هـ) . ينظر : الأعلام للزركلي : ١٧٨/٧ .
(٨) الكشاف ، للزمخشري :١ /١٠٠.
(٩) سورة النساء: الآية ١٢٨.
(١٠) سورة النساء: الآية ١٢٩.
(١١) سورة الحجرات: الآية ٩ .
(١٢) سورة الحجرات: الآية ١٠.
(١٣) سورة الأحزاب : الآية : ٧١ .
(١٤) سورة محمد: الآية ٢..
(١٥) سورة الأعراف : الآية : ٥٦ .

وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾[١] [٢].

وعلى هذا يكون معنى الإصلاح الذي نعنيه في بحثنا هنا : هو العمل على تصحيح وتقويم لحال الأسرة المسلمة من الفساد أو الاخطاء التي تصيبها في وقت من الأوقات وذلك بهدف الوصول بها إلى الحالة المستقيمة والسوية .

المطلب الثاني تعريف الاسرة

تعريف الأسرة لغةً واصطلاحاً

الأسرة لغةً: أسرة الإنسان: عشيرته ورهطه الأدنون، مأخوذ من الأسر، وهو القوة، سموا بذلك؛ لأنه يتقوى بهم، والأسرة: عشيرة الرجل وأهل بيته، قال أبو جعفر النحاس: الأسرة أقارب الرجل من قبل أبيه[٣]. جاء في المعجم الوسيط: {الدرع الحصين، وأهل الرجل وعشيرته، ويطلق على الجماعة يربطها أمر مشترك، وجمعها أسره[٤].

واصطلاحاً: جاء في الموسوعة الفقهية: {لفظ الأسرة لم يرد ذكره في القرآن الكريم، كذلك لم يستعمله الفقهاء في عباراتهم فيما نعلم. والمتعارف عليه الآن إطلاق لفظ (الأسرة) على الرجل ومن يعولهم من زوجه وأصوله وفروعه. وهذا المعنى يعبر عنه الفقهاء قديما بألفاظ منها: الآل، والأهل، والعيال. كقول النفراوي المالكي: منقال: الشيء الفلاني وقف على عيالي، تدخل زوجته في العيال. وفي حاشية ابن عابدين: أهله زوجته، وقالا، -يعني صاحبي أبي حنيفة-: كل من في عياله ونفقته غير مماليكه، لقوله تعالى: {فنجيناه وأهله أجمعين[٥]. وقد ورد توضيح لمعنى الاسرة في أحدى حواشي القدماء: {الأسرة هي تلك الوحدة الناتجة من عقد يفيد ملك المتعة مقدراً، أي يراد به استمتاع كل من الزوجين بالآخر على الوجه المشروع، ويجعل لكل منهما حقوقاً وواجبات على الآخره[٦].

أما التعريفات المعاصرة للأسرة فهي كثيرة، منها:

الأسرة هي: {الوحدة الأولى للمجتمع، وأولى مؤسساته التي تكون العلاقات فيها في الغالب مباشرة ويتم داخلها تنشئة الفرد اجتماعياً ويكتسب فيها الكثير من معارفه ومهاراته وميوله وعواطفه واتجاهاته في الحياة، ويجد فيها أمنه وسكنه.[٧]

كما عرفت الأسرة بأنَّها: {الوعاء الحافظ للنسب والقربى والرحم وعبره يتم انتقال الثروة من جيل إلى جيل.[٨]

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٢.

(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني: ٢٨٤/١ .

(٣) ينظر: لسان العرب: لابن منظور، ٢٠/٤، وتاج العروس: لمحمد الزبيدي ٥١/١٠. مادة: (أسر).

(٤) المعجم الوسيط: أحمد الزيات واخرون، ١٧/١، (أسر).

(٥) الموسوعة الفقهية الكويتية: ٢٢٣/٤.

(٦) تنوير الأعلام على هامش حاشية ابن عابدين، ٢٦٥/٢.

(٧) نظام الأسرة في الإسلام: محمد عقلة، ص١٧.

(٨) وثيقة مؤتمر المرأة العالمي الرابع (دراسة شرعية): نوال

أوهي: {رابطة اجتماعية تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما، وتشمل الجدود والحفدة وبعض الأقارب على أنْ يكونوا مشتركين في معيشة واحدة.(١)

كما تُعرَّف بأنَّها: {النظام الاجتماعي الذي ينشأ عنه أول خلية اجتماعية تبدأ بالزوجين، وتمتد حتى تشمل الأبناء والآباء والأمهات والإخوة والأخوات والأقارب جميعاً.(٢)

كما عرّفتها د.سناء الخولي بأنَّها: {جماعة اجتماعية أساسية ودائمة ونظام اجتماعي ورئيسي، وهي ليست أساس وجود المجتمع فحسب، بل الأخلاق والدعامة الأولى لضبط السلوك والإطار الذي يتلقى منه الإنسان أول دروس الحياة الاجتماعية.(٣)

والأسرة هي: {الوحدة الاجتماعية الأولى والبنية الأساسية التي ترعى نمو الطفل، وهي لهذا اشتملت على أقوى المؤثرات التي توجه نحو السلم.(٤)

كما تعرّف الأسرة في العرف الاجتماعي السائد بأنَّها: {المجموعة الصغيرة والمكوّنة من الزوجين والأبناء، أساس هذه الأسرة الزوجان المكونان من رجل وامرأة، وهما اللذان يقومان بالدور الأساس والفعّال في التكوين والتنظيم والرقابة من البداية إلى النهاية(٥)

ويعرّف نظام الأسرة بأنَّه: {تلك الأحكام والمبادئ والقوانين التي تتناول الأسرة بالتنظيم بَدْءً من تكوينها مروراً بقيامها واستقرارها وانتهاءً بتفرقها، وما يترتب على ذلك من آثار تؤدِّي إلى إرسائها على أسس متينة تكفل ديمومتها وإعطاءَها الثمرات الخيّرة المرجوّة منها(٦)

عليه؛ يمكن القول بأنَّ مفهوم الأسرة يشمل: الزواج، والتناسل، وتربية الأولاد. وأنْ يكون الزواج بين رجل وامرأة برباط شرعي، وينظر الإسلام للأسرة على أنها نواة المجتمع والمكوّن الأساسي له، والبيئة الاجتماعية الأولى التي ينشأ فيها الإنسان فتؤثر عليه سلباً أو إيجاباً، عن أبي هريرة ﷺ قال الرسول ﷺ: {**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**(٧)

المطلب الثالث: مفهوم المجتمع

المجتمع لغة: اسم مشتق من جَمَعَ، فالجمع ضم الأشياء المتفقة وضده التفريق

سرار، ص١٩.
(١) نظام الأسرة في الإسلام: محمد عقلة، ص١٨.
(٢) الإسلام وتنظيم الأسرة: حسن الكريم، ورقة غير منشورة، ص٢.
(٣) الزواج والعلاقات الأسرية: سناء الخولي، ص١.
(٤) الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة: سعاد إبراهيم صالح، ص٦٢.
(٥) السلوك الاجتماعي في الإسلام: حسن أيوب، ص١٩٨.
(٦) وثيقة مؤتمر المرأة الرابع ببكين ١٩٩٩م (دراسة شرعية): نوال سرار، ص٩٠.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في اولاد المشركين، رقم ١٣٨٥، ٢/

والإفراد والمجتمع موضع الاجتماع أو الجماعة من الناس[١].

المجتمع اصطلاحاً:

المجتمع كمصطلح يدل على الانتماء إلى فكر معين، أو أرض أو جنس أو قوم.

وقد أثار هذا المصطلح علماء الاجتماع وكانت لهم تعريفات عدة . منها إن المجتمع هو" تركيب أو تأليف لمجموعة من الأفراد يتميز بخط معين من العلاقات التي تربط هذه المجموعة من الأفراد وتجعلهم كلاً واحداً متماسكاً متجهاً إلى غاية واحدة"[٢]. وقيل أيضاً: هو" ذلك الإطار العام الذي يحدد العلاقات التي تنشأ بين الأفراد الذين يعيشون داخل نطاقه في هيئة وحدات أو جماعات"[٣]. وعرفه آخرون بأنه "مجموعة من الأفراد تقطن على بقعة جغرافية معينة، محددة من الناحية السياسية، ومعترف بها، ولها مجموعة من العادات والتقاليد ، والقياس والقيم، والأحكام الاجتماعية، والأهداف المشتركة المتبادلة التي أساسها الدين، اللغة، التاريخ، العنصر"[٤] .

وعرفه بعضهم بأنه أساس كل الظواهر الدينية والمعرفية [٥] ، وعبر عنه "تونبي" إن المجتمع البشري هو ذاته نظام لعلاقات بين الكائنات البشرية[٦] .

وقيل أيضاً هو مجموع من الناس تربطهم أفكار ومشاعر وأنظمة ، وبهذا يصنف بحسب هذه المنظومة من الأفكار والمشاعر والأنظمة فإن كانت إسلامية مثلاً كان مجتمعاً إسلامياً وإن كان ليبرالياً مثلاً كان المجتمع ليبرالياً [٧].

المطلب الرابع: دعوة القرآن لإصلاح الاسرة

قدم القرآن في منهجيته الإصلاحية الواقعية بتقديم الحل الأمثل والطبيعي للبشرية والمتمثل بالدعوة للزواج ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [٨] فهو بذلك قد قام بتنظيم مشاعر الفرد الجنسية وضبطها ، وتأمين الزواج لكل راغب فيه ، وفي الوقت نفسه أوصد

(١) ينظر: لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري ت(٧١١هـ) دار صادر - بيروت ، ط١: ٣٥٧/٢ وينظر: المعجم الوسيط : ابراهيم مصطفى ، احمد الزيات ، حامد عبد القادر ،محمد النجار ، تحقيق : مجمع اللغة ، دار النشر -دار الدعوة: ١٣٦/١.

(٢) أسس علم الاجتماع، محمود عودة ، دار النهضة العربية - بيروت: ٢٠.

(٣) دراسة المجتمع، مصطفى الخشاب، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، د. ط، ١٩٨٧م: ٧.

(٤) بناء المجتمع الإسلامي، عبد الله مبارك الفرج: ٨.

(٥) ينظر: علم اجتماع المعرفة، طه نجم، دار المعرفة الجامعة –القاهرة- ١٩٩٦م: ١٢

(٦) ينظر: مختصر دراسة التاريخ: ارنولد تونبي ، ترجمة : فؤاد محمد شبل ، لجنة التأليف والنشر ، جامعة الدول العربية، ١٩٦٦م ، ٣٥٣/١.

(٧) ينظر: المجتمع الإسلامي في مرحلة التكوين، مصطفى علم الدين، دار النهضة العربية –بيروت، ١٩٩٢م: ٦.

(٨) سورة النور : الآية : ٣٢ .

كل أبواب التصريف الجنسي القذر ، والذي تظهر معالمه في تجارة بيع الأعراض (البغاء) والإباحية، الذي أرتبط وجوده بوجود الرقيق في الجاهلية ، لضعف إحساسهم بكرامتهم الإنسانية ، لذلك حث الأسياد على مكاتبة عبيدهم - إن علموا فيهم خيرا - مقابل مبلغ من المال لقاء الحرية ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وهكذا نجد أن القرآن يسعى جاهداً من أجل تجفيف منابع السوء والفساد حيثما كانت وأينما حلت، وهو في الوقت نفسه يعلنها دعوة صريحة إلى تصريفها في موضعها الصحيح ، وجعلها من القربات إلى الله تعالى وهو سنة رسوله ومصطفاه وفطرته ﷺ ، لذلك أمر به وحث عليه فقال ﷺ : [**من أحب فطرتي فليستن بسنتي ومن سنتي النكاح**] (٢) ، وهي دعوة أطلقها القرآن إلى أولياء الأمور لعفاف الشباب والبنات عن طريق الزواج، وتذليل كل العقبات التي تعترضه ، ومن أهمها المالية ، والتي تشكل العائق الكبير ، وقد تكفل الله بالتوسعة عليهم ، قال تعالى : ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

وإن رسول الله ﷺ قد عدهم من الأصناف التي تعهد الله بعونهم، إذ قال ﷺ : [**ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف**] (٤) .

فلا ينبغي أن يكون الفقر صارفاً للناس عن الزواج ؛ وهي كذلك دعوة أطلقها القرآن لأولياء أمور البنات ألا يبالغوا في المهور خاصة إذا كان الخاطب فقيراً وصاحب خلق ودين .

ودعوة لأولياء أمور الشباب أن لا يؤخروا تزويج أبنائهم إن كان كسبهم قليلاً .

ودعوة للشباب أنفسهم أن لا يؤخروا الزواج انتظاراً للمزيد من الغنى ، ويكفيهم وعد الله تعالى بعونهم والتوسعة عليهم .

فإن بقي بعض الأيامى (٥) بدون زواج فعليهم التزام الصبر والاستعفاف حتى يغنيهم الله من فضله ويتمكنوا من الزواج، وخير تفسير لمعنى الاستعفاف الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ

(١) سورة النور : الآية : ٣٣ .
(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه : ١٦٩/٦ ، برقم (١٠٣١٨)، والبيهقي في سننه الكبرى : ٧٧/٧ ، برقم (١٣٢٢٩) .وقال الهيثمي : ورجاله ثقات إن كان عبيد بن سعد صحابي وإلا فهو مرسل . مجمع الزوائد. ٤ / ٢٥٢ .
(٣) سورة النور : الآية : ٣٢ .
(٤) أخرجه الترمذي في سننه : ١٨٤/٤ ، برقم (١٦٥٥) وقال: «حديث حسن» ، والبيهقي في سننه الكبرى : ٣١٨/١٠ ، برقم (٢١٤٠١) .
(٥) الأيامى : جمع الأيم وهي المرأة التي لا بعل لها وقد قيل للرجل الذي لا زوج له وذلك على طريق التشبيه بالمرأة فيمن لا غناء عنه لا على التحقيق . ينظر : المفردات للراغب الأصفهاني : ٣٢/١ .

﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ (١) ، هو قوله ﷺ : [**يا مَعْشَرَ الشَّبَابِ من اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فإنه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فإنه له وِجَاءٌ**] (٢) .

ومما لاشك فيه أن التربية الإسلامية المعتدلة المتناسقة وتوقي مواضع الإثارة وأسباب الفتنة (بتحريم التبرج ، والتطري في الحديث ، والاختلاط في غير ضرورة قاهرة)، مع أخذ الجسم بالرياضة والصوم، والتبكير بالزواج بمجرد الاستطاعة؛ كل هذه العوامل هي إيجابية ومهمة في ضبط النفس والجسد من المغريات والفتن (٣) وبهذا تكون منهجية القرآن قد حققت هدف الوقاية من الغواية من جهة ، والتشجيع على إنشاء الأسرة والاستقرار العائلي من جهة أخرى وهو الأمر الذي ينتظم به المجتمع ويقوى من خلاله أفراده .

المطلب الخامس: وظائف الاسرة من المنظور القرآني

قبل الشروع في بيان أولى خطوات الحياة الأسرية كما خطها القرآن الكريم أرى من الضرورة أن أبين قبل ذلك أهمية الدور الوظيفي الذي خطته الأسرة لنفسها في الحياة الاجتماعية ليتضح لنا عظم رسالتها الإنسانية ، التي اثبت من خلالها للعالم قديما وحديثا أنها انجح مؤسسة عرفتها البشرية منذ تكوينها والى يومنا هذا .

وحتى تتضح لنا معالم هذه الأهمية لابد أن نتعرف على وظائفها الأساسية وذلك من خلال الأمور الآتية :

١- وظيفة التنظيم الجنسي وحماية المجتمع من الانحلال :

إن الأسرة الناشئة عن عملية الزواج الشرعي يتم من خلالها تنظيم شهوة الإنسان وقضائها بصورتها المشروعة الصحيحة التي تتولد من خلالها القناعة عند كل من الرجل والمرأة بما قسم الله له ، فينتج عنه استمتاع كل منهما بالآخر وإشباع الغريزة الجنسية ، التي أقرها المشرع واحترم ضرورتها ولكنه في الوقت نفسه قام على تهذيبها ؛ وذلك بالزواج وتأكيد الدعوة إليه (٤) .

قال تعالى : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ (٥) .

وإن الطاقة الجنسية من حيث المبدأ هي مسألة بيولوجية لا يمكن استمرار الحياة على وجه الأرض بدونها ، والإسلام حريص على

(١) سورة النور : الآية : ٣٣ .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب النكاح ، بَاب من لم يَسْتَطِعْ الْبَاءَةَ فَلْيَصُمْ : ١٩٥٠/٥ ، برقم (٤٧٧٩) ، ومسلم في صحيحه : كتاب النكاح ، باب اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ لِمَنْ تَاقَتْ نَفْسُهُ إليه وَوَجَدَ مُؤْنَهُ وَاشْتِغَالِ من عَجَزَ عن الْمُؤَنِ بِالصَّوْمِ : ١٠١٨/٢ ، برقم (١٤٠٠) .
(٣) ينظر : السلام العالمي والإسلام لسيد قطب : ٧٣ .
(٤) ينظر : الإنسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب : ١٨٢ .
(٥) سورة النساء : الآية : ٣ .

تحقيق أهداف الحياة العليا ؛ فهو لذلك يحترم كل ما يؤدِّي إلى تحقيق هذه الأغراض ، ولكن الذي يضع له الإسلام الضوابط والقيود هو طريقة التنفيذ العملي لتلك الأهداف والاعتراف بها من حيث أحقيتها بالوجود ، والاعتراف للناس بحق الإحساس والشعور [١] .

٢- وظيفة التناسل والإنجاب وحفظ النسل :

فعن طريق الزواج وإنشاء الأسرة يكون حفظ النسل ، وتتم عملية الإنجاب الشرعية ، وذلك لضرورة استمرارية الحياة البشرية ، كما إن التكاثر وحفظ التناسل وإنجاب الأبناء من الأهمية بمكان لما في ذلك من تلبية لفطرة الإنسان ولرغبته النفسية في رؤية من يرى فيهم امتدادا لحياته ، وهم الذين نطق القرآن بوصفهم زينة الحياة الدنيا ، والتي لاغنى لأي أسرة عنهم [٢] .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [٣].

وهو أساس دعت إليه السنة النبوية أيضا ، ومن ذلك قوله ﷺ : [**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم**] [٤] .

٣ - الوظيفة العاطفية والنفسية :

إن الأصل في العلاقة الزوجية بوجه خاص والأسرية بوجه عام أنها تقوم على الرحمة والمودة والاحترام المتبادل وذلك لتحقيق الهدف العام وهو السكينة والراحة النفسية [٥] .

وهو ما عناه القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[٦]، وقوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [٧] .

٥- وظيفة التنشئة الاجتماعية :

وهذه التنشئة لا تتأثر إلا بعد شعور كلا الطرفين الزوج والزوجة بعظم المسؤولية وأهمية أدائها على الوجه الصحيح والمطلوب من كل منهما، استجابة لنداء المولى عزوجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [٨] .

فبمعرفة كل منهما واجباته ومسؤولياته مع تعاونهما في بناء هذه المؤسسة كلاً ضمن اختصاصه وطاقاته وموقعه المعد له، عندها فقط تنشأ المجتمعات النظيفة العفيفة الواعية المدركة لعظم الأمانة المكلفة بحملها وأدائها على الوجهة الصحيحة .

---

(١) ينظر : الإنسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب : ١٩٣ .

(٢) ينظر : الذرية الصالحة وأثرها في مستقبل الأمة لكامل القيسي : ٩١ – ٩٣ .

(٣) سورة الكهف: الآية ٤٦ .

(٤) أخرجه النسائي في سننه الكبرى : ٢٧١/٣ ، كتاب النكاح ، باب النهي عن تزوج المرأة التي لا تلد ، برقم (٥٣٤٢) ؛ والحاكم في المستدرك : ١٧٦/٢ ، كتاب النكاح، برقم (٢٦٨٥) وقال : [هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة] .

(٥) ينظر : أصول المعاشرة الزوجية لصالح المصري : ٢٣ .

(٦) سورة الروم : الآية : ٢١ .

(٧) سورة البقرة : الآية : ١٨٧ .

(٨) سورة التحريم : الآية : ٦ .

وبغض النظر عن القلة والكثرة فإن المتاح لهذه الأمة أن يكون أبناؤها ذرية طيبة صالحة تقيم الوزن ، وتبني معالم الحياة الكريمة، وهذا مرهون بمقدار التلقي من وسائل التربية، وطرق الإعداد في التنشئة الصحيحة[١] .

المطلب السادس: الاداب الشرعية للاسرة المسلمة

الآداب الشرعية والتي من شأنها أن تكفل للأسرة الاستقرار والطمأنينة إذا ما أعطية حقها من الرعاية والاهتمام ، ومن هذه الآداب :

أ- غض البصر :

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ [٢] .

فالنظر هو محرك الشهوة وباعثها وهو منفذ كبير إلى العقل ، والسقوط من جهة البصر أكثر من السقوط من جهة الحواس الأخرى ، فالنظرة الخائنة إلى ما حرم الله من شأنها إثارة ذلك السعار الحيواني وتزيد فرصة الغواية والفتنة بين الجانبين [٣] .

فالعين مفتاح القلب والنظر رسول الفتنة وبريد الزنى ؛ وتحرزاً من أسباب الفتنة وتحقيقاً للطهارة بمفهومها الكامل الشامل ، طهارة النفس في تصوراتها ومشاعرها وانفعالاتها من الخيانة ، وطهارة الأسرة والتي هي أساس المجتمع من كل المظاهر التي تؤدي إلى انتشار الفاحشة ، وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ [٤] .

وإن هذا الأمر للمؤمنين بغض البصر لا يمكن أن يثمر الطهارة التي سعت منهجية القرآن إلى ترسيخها في الأسرة إلا إذا أمرت المرأة بنفس ذلك التكليف السالف للمؤمنين ، لذلك أمر الله المؤمنات بغض البصر وحفظ الفرج [٥] .

ب- نبذ التبرج وفرض الحجاب [٦] :

قال تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [٧] .

إن منهجية القرآن وهي تعالج النفس البشرية وتأخذها بالعلاجات الواقية حيناً والمباشرة حيناً

(١) ينظر: الذرية الصالحة وأثرها في مستقبل الأمة لكامل القيسي: ١٩٨ .
(٢) سورة النور : الآية : ٣٠ .
(٣) ينظر : وسائل الإسلام في المحافظة على كرامة المرأة لصلاح عبد الغني : ٤١ .
(٤) سورة النور : الآية : ٣٠ .
(٥) ينظر : التفسير الموضوعي لسور القرآن لنخبة من علماء التفسير : ٢١٢/٥ .
(٦) التبرج : هو إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال ويقال تبرجت المرأة : أي أظهرت وجهها ، وإذا أبدت المرأة محاسن جيدها ووجهها قيل تبرجت ينظر : لسان العرب ، لابن منظور : ٢١٢/٢ .
(٧) سورة الأحزاب : الآية : ٣٢ – ٣٣ .

آخر، نجد أنها قد شرّعت في سبيل إدخال السعادة والطمأنينة إلى الحياة الأسرية كلَّ حُكم من شأنه الوصول إلى تلك الغاية ، ولأجله شُرِع غض البصر بين الجنسين ، وجاء الحُكم عاماً في إلزامه لهما معاً، وزاد لحكمة جليلة هذا النهي في حق النساء وذلك في قضية إبداء الزينة .

قال تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وإن هذا النهي جاء ليؤدي الغرض المطلوب منه وهو إخفاء المثيرات الجنسية والمفاتن الغريزية عن أبصار الرائين والناظرين إليها من الرجال .

وهي الصورة الكريمة في التعامل مع المرأة والتي ذكّرنا بها القرآن في نص جامع معجز قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ (٢)، فهي دعوة في حقيقتها إلى مكانة المرأة واحترام إنسانيتها ، وذلك بلزوم التعامل معها بكونها إنسانة مثلهم ذات مقومات علمية وثقافية وقدرات اجتماعية لا على إنها كتلة من المهيجات الغريزية واستعمالها أداة للترفيه عن الرجال (٣) .

وبذلك نجد أن منهجية القرآن قد حققت بهذا التشريع (الوقاية المانعة من إثارة الشهوات) والتي توقدها الحركات الناشئة عن رغبة المرأة في إبداء زينتها ، وهذا ما نجده في تتبع القرآن لأدق التفاصيل لهذه الحركات وذلك في نهيه الصريح للنساء عن الضرب بالأرجل الذي كانت تفعله النساء وقتئذ ليسمع صوت خلخالها وتلفت الأنظار إليها ، ويطمع فيها الذي في قلبه مرض .

وإن القرآن في منهجيته الواقعية يضع في حسابات القائمين على الإصلاح الأسري حقيقة حب المرأة للزينة وإنه أمر فطري ، وكذلك رغبتها في إظهار زينتها وجمالها ، فهو بذلك يقر بحقيقة وجود هذه الرغبة الفطرية ، ولكنه كعادته يهذبها وذلك بوضع الضوابط التي تحدد أماكنها ومواضعها الصحيحة والتي من شأنها أن تحقق السلام والاستقرار الأسري والاجتماعي .

وهكذا تتضح معالم حكمة المنهجية الربانية جلية أكثر عند تدبرنا للآيات القرآنية في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة النور : الآية : ٣١ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية : ٥٩ .
(٣) ينظر : المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني ، للبوطي : ١٥٤ - ١٧٢ .
(٤) سورة الأحزاب : الآية : ٥٣ .

فخشية أن تكون المرأة مطمعاً للأنظار ولئلا تكون فتنة في المجتمع ومدعاة للسوء وما فيه من تشتيت للأسر أمر القرآن المرأة بالحجاب وذلك من أجل حشمتها وكمالها وسترها ووقارها [١] .

جـ- الاستئذان وتقرير حرمة البيوت :

بعد أن بيَّن القرآن ضررَ الزنى وخطره، ولما كان طريقة الأول النظر والإطلاع على العورات والتلذذ بالمحاسن ، أرشد الله عباده إلى طريقته الحكيمة التي يجب أن يتبعوها إذا أرادوا دخول البيوت حتى لا يقعوا في ذلك الشرِّ الوبيل والخطر الجسيم والذي يقضي على وحدة الأسرة والمجتمع على حد سواء .

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾ [٢] .

وهكذا نجد أن مقصد هذا المنهجية هو استئصال الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في فاحشة الزنا ، والتي يزداد انتشارها بتهيئة الأجواء المناسبة لها ، من خلال تنشئة الأوساط الشهوانية التي تحرك شهوات الناس كافة ، وتثير غرائزهم وعلى هذا الأساس نجد أن هذه المنهجية قد وضعت اتقاء لفداحة هذا الخطر خطة متكاملة لتحقيق هذا الهدف النبيل ، تمثلت في النهي عن دخول بيوت الآخرين بغير استئناس أهلها واستئذانهم ، ونهي الرجال عن النظر إلى النساء الأجنبيات ، وكذلك النساء عن النظر إلى الرجال الأجانب ونهي النساء عن أبداء زينتهن لغير محارمهن وأزواجهن ، والنهي عن البغاء الذي يفتح أوسع الطرق أمام الفاحشة ، وأمر بتزويج الأيامى والذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء، وحتى العبيد والإماء والذين كانوا سابقا هم مظنة الوقوع في الفاحشة أكثر من غيرهم لمهانة أنفسهم وذلّها بالعبودية .

وهذه الأمور هي التي تؤمن الجو الآمن للأسرة وللمجتمع من حولها ، وهي في الوقت نفسه ترتفع بها عن الشهوانية الحيوانية ، التي تحول الإنسان إلى عبد ذليل مسلوب الإرادة أسير شهواته لا يفكر إلا بالمتعة الجسدية بعيدا عن الأهداف العظيمة والتي أنيطت به في هذا الوجود [٣] .

إن مما شرعته منهجية القرآن الكريم وأعطت فيه للبيوت حرمتها، وللأسرة حقوقها الخاصة بها، والتي لا يملك كائن من كان التعدي عليها والاستهانة بها، ما خص بها القرآن الأسرة

(١) ينظر : دور المرأة والأسرة في الإسلام لأحمد تفاحة : ١٢٤ .
(٢) سورة النور : الآية : ٢٧ - ٢٩ .
(٣) ينظر : التفسير الموضوعي لسور القرآن ، لنخبة من علماء التفسير : ٢٠٦/٥ .

من مطالبة الزائر بضرورة معرفة أنس أهل البيت بدخوله عليهم ومدى رغبتهم بزيارته لهم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) .

وفي ذلك من العناية والرعاية ما خصَّ الله به هذه المؤسسة والتي أراد الله لها أن تكون مثابة وسكناً لأهلها ، فالفرد الذي لا يستمتع في بيته بالسلام ، لن يعرف للسلام قيمةً ، ولن يتذوق له طعماً ، ولن يكون عامل سلام وفي أعصابه معركة، وفي نفسه قلق، وفي روحه اضطراب (٢) .

والإسلام يتجه إلى بذر بذور السلام في البيت في الوقت ذاته الذي يتجه فيه إلى الضمير الفردي ، وإلى المجتمع الدولي ، فكلها حلقات متضامنة وفيما بينها ترابط واتصال (٣) .

وفي قوله عزوجل : ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ أيضاً من الآداب القرآنية أن المرء لا ينبغي أن يكون كَلاًّ على غيره ، ولا ينبغي له أن يُعرِضَ نفسه إلى الكراهية والاستثقال ، وأنه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآنسين ، وذلك عون على توافر الأخوة الإسلامية (٤) .

د- محاربة الفاحشة بتحريم الزنا :

إن الإسلام يحرص على أن يكون الزواج هو الطريقة التي يلتقي بها الرجل والمرأة ، ويدعو اليه دعوة حارة ، فيجعله النبي ﷺ بمثابة نصف الدين(٥)، وذلك لأنه يقي الشهوة العارمة ، ويُخلِّص النفس من سطوتها ومشغلتها ، وهو يهيئ المشاعر والأفكار لاستقبال الأهداف العليا ، والعمل في سبيلها (٦) .

وفي المقابل يعد أي لقاء خارج إطار الزوجية جريمة دينية وخلقية واجتماعية ، وذلك لأنها تمثل اعتداء على العرض والشرف والنسل والكرامة الإنسانية ، وتؤدي إلى هدم الأسرة، وتحطيم كل المجتمع ، لذلك نجد أن القرآن قرنها بالشرك بالله عز وجل قال تعالى :﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾(٧) .

(١) سورة : النور : الآية : ٢٧ .
(٢) ينظر : السلام العالمي والإسلام لسيد قطب : ٦٤ .
(٣) ينظر : السلام العالمي والإسلام لسيد قطب : ٦٤ .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور : ١٩٧/٩ .

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الخليل بن مرة عن الرقاشي ولفظه (إذا تزوج العبد فقد كمل نصف الدين فليتق الله في النصف الباقي) ومن حديث زهير بن محمد أخبرني عبد الرحمن بن زيد بن عقبة المدني عن أنس مرفوعا بلفظ (من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله في الشطر الباقي) وكذا هو عند شيخه الحاكم في مستدركه وقال إنه صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ينظر: المقاصد الحسنة، للسخاوي- ١ / ٦٣٨.
(٦) ينظر : الإنسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب : ١٩٧.
(٧) سورة : الفرقان : الآية : ٦٨ .

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

إن هذه الآية بيّنت فظاعة هذه الفاحشة وبشاعتها وأنها تتنافى مع الأيمان فالذين يرتكبونها لا يليق بهم الزواج من المرأة المؤمنة العفيفة بل يليق بهم الزواج من الزانية أو من هي أشر منها وهي المشركة ، الزانية كذلك لا يليق بها أن تتزوج المؤمن العفيف ، وإنما يليق بها من هو مثلها من الزناة أو من هو شر منهم وهم المشركون ، إلا أن تقع التوبة التي تطهر النفوس من ذلك الدنس ؛ لأن التوبة أسقطت عنهم صفة الزنا ، وهكذا نجد أن الآية تفيد نفور طبع المؤمن من نكاح الزانية ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزاني ،واستبعاداً لوقوع مثل هذا الرباط نجد أن القرآن جاء بلفظ التحريم دلالةً منه على شدة الاستبعاد(٢) .

محذراً المؤمنين منه بل ومن اقتراف أي عملٍ من شأنه الصيرورة إليه والوقوع به ، معللاً ذلك بما يدفع العاقل إلى مجانبته والبعد عنه قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (٣)

وبعد كل هذا الذي تقدم فان الباحث يخلص إلى أن عناية القرآن بالأسرة قد شملت تحقيق الاعتبارات الأخلاقية فيها ، والمتمثلة بمراقبة الإنسان المؤمن لربه، وغضه بصره عن كل ما لا يحل له من المحرمات ؛ وإلزام المؤمنات بالحشمة، وبيان خطورة التبرج وعدم التستر عن الأجانب؛ والعمل على تشريع ما يحفظ للبيوت حرمتها، وضرورة أخذ الإذن من أصحابها؛ وما قام به القرآن الكريم من تشريعات للحدود رادعة، كل ذلك إنما جاء حفاظا على الحياة الزوجية من الانهيار ومن ضياع أفراد الأسرة وسعياً منه إلى تجفيف منابع الغواية والفساد في المجتمع، والتي هي ألأساس في المشكلات الزوجية والأسرية اليوم .

المطلب السابع: اصلاح المجتمع في القرآن الكريم

لقد أصلح القرآن الكريم المجتمع الذي نزل فيه وما بعده من المجتمعات المتجددة، والتي أخذت بهديه واستضاءت بنوره فهو كفيل بأن يصلح المجتمعات المعاصرة ويعالج القضايا المتجددة ؛ لأنه يحمل في طياته - آيات القرآن – كل عناصر النمو والتطور الثقافي والفكري على جميع الأصعدة الذي تجعله يصلح للتطبيق في كل مجتمع ، وإن اختلفت مقوماته قليلاً أو كثيراً على مقومات المجتمع الذي نزل فيه القرآن الكريم .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها، وسيظل هذا المنهج القرآني على اختلاف الازمان و الأجيال الدواء لكل داء، والحل لكل مشكلة، والعصمة من كل ضلال .

(١) سورة : النور : الآية : ٣ .
(٢) ينظر : في ظلال القرآن لسيد قطب : ٢٤٨٨/٤ .
(٣) سورة : الإسراء: الآية ٣٢ .

إنّ التأصيل للأمن الاجتماعي جاء واضحاً في القرآن الكريم فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى، ونهاهم على الاثم والعدوان(١)، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المَائِدَة : ٢] ، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ [الحُجُرَات : ١٠]، وهذه الإخوة التي جعلها الله تعالى بين المؤمنين قرينة الولاية المتبادلة بينهم(٢)، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التَّوْبَة : ٧١].

فلقد نهى الله تعالى عن فرض الإسلام بقوة السيف(٣)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البَقَرَة : ٢٥٦].

فشرعية الأمن الاجتماعي في الإسلام تأتي(٤)، من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البَقَرَة : ٢٠٨].

الخاتمة

اعتنى القرآن بالأسرة عناية كبيرة ، وجعلها متميزة عن غيرها ، بأنها علاقة مجمعة ، إيجابية، طويلة الأمد ومستمرة جاعلا السمة الغالبة عليها هي المودة والتراحم .

إن للأسرة في المنهج القرآني عدة وظائف منها: الوظيفة التناسلية، والوظيفة الأخلاقية، والوظيفة الاجتماعية .

لم تشهد مؤسسة قط من حملة شرسة ترمي إلى شل كيانها وإفراغها من محتواها الإنساني مثل الأسرة المسلمة اليوم .

لقد وضع المنهج القرآني القواعد المثلى للحياة الزوجية السليمة وابتداءً من الخطوة الأولى في طريق البناء الأسري وذلك بمطالبته الزوجين بحسن الاختيار لضمان تجنيب الأسرة المشاكل والأخطاء والتي هي في الغالب إنما تكون نتيجة سوء الاختيار .

لقد أمر القرآن الكريم كلا الزوجين بإحسان العشرة، والمصانعة بالمعروف، جاعلا من العدل هو الأساس الذي تقوم عليه الحقوق والواجبات بينهما من غير الدخول في تفاصيلها وتفرعاتها والتي يغني عنها تحقق التقوى وتمكنها في النفوس.

لقد كان للأوامر والنواهي القرآنية الأثر الواضح والفعلي في إصلاح الحياة الزوجية بما يحميها

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ، ٤٩٠/٥ .
(٢) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٠هـ) ، تحقيق : عبدالرزق مهدي ، دار احياء التراث العربي – بيروت ، ط١ ، ١٤٣٠هـ ، ٣٦٩/٢ .
(٣) ينظر: النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العالمية – بيروت، ط١، ٣٢٧/١.
(٤) ينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن احمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داود، دار القلم الدار الشامية – دمشق، ط١، ١٤١٥هـ ، ٣١٣/١ .

من الفتن والمغريات والتي غالبا ما تقف وراءها المشاكل الزوجية والتي تدفع إلى الطلاق.

لقد أثبتت منهجية القرآن صلاحها لكل زمان ومكان وذلك بإقرارها بوجود المشاكل والمنغصات الزوجية التي لابد من الاعتراف بها أولا ، والبحث عن حل ناجع لها ثانيا، فتكون بذلك قد أعطتها حجمها الحقيقي، محاولة في الوقت نفسه علاجها بكل السبل المتاحة، والتي أعطت للزوجين فيها مساحة من الاجتهاد في اختيار ما يتناسب من الإصلاح مع طبيعة المرحلة الزمانية والمكانية.

العلاج قد يكون الطلاق، ولكن ليس معناه أن يكون هو آخر المطاف واليه المنتهى ، فهو قد يكون جزء من العلاج وذلك كله بشرط أدائه بالطريقة الشرعية، والتي هي ضامنة أن تكون المخلص لكثير من المشكلات الزوجية والتي قد يكون الطلاق فيها أهون الشرين وأحسن الطريقين.

الذريّة الصالحة مطلب الصالحين وقرة عين الموحدين ، لا تستقيم الحياة من دونهم ، فهم مقصد الزواج وهم ميدان العمل الآخر ، ولأجل هذا كان الإيمان بالله هو أساس فلاحهم، وطاعة الوالدين هو أساس نجاحهم، والقيام بحق الآخرين هو ثمرة الغرس الناجح فيهم، وهذا ما عمل على غرسه القرآن بكل قوة، واضعا بين أيدي المصلحين نماذج إنسانية استحقت بأخلاقها الحسنة أن يسجل لها ذلك في أكرم وأكمل كتاب أُنزل لإصلاح البشرية.

إن الأسرة هي أول جماعة ينتمي إليها الإنسان في هذه الحياة، والتي تؤثر في سلوكها وعلاقاتها الاجتماعية على سلوكيات الإنسان وتصرفاته فيما بعد، فبالنتيجة لابد من العمل على تكافلها وترابطها بما يضمن أداء رسالتها الإنسانية والتربوية بالصورة السليمة الصحيحة وهذا ما دعا إليه القرآن مؤكدا في تشريعاته الإصلاحية على أهمية اعتباره والدعوة إليه وجعله أساسا للبناء الأسري والاجتماعي.

* * *